المذاهب الاجتماعية الحديثة

للدكتور كليفلند

مدير قسم الخدمة العامة بالجامعة الامريكية بالقاهرة

الاجتماع علم او فن

ما هو المجتمع؟ اللفظ الفرنجي Society مشتقٌ من اصل لاتيني «سوسيوس» Socius ومعناه رفيق ، وهذا اللفظ رفيق وهو (Companion) مشتق بدوره من اصلين لاتينيين هما Con و Pains ومعناها الاكل معاً او « المؤاكلة » فلفظ Society يعني اصلاً جماعة بينهم شركة او لهم مصلحة تامة ؛ وفي معناها الحديث الواسع يقصد به اولئك الافراد الذين يعيشون معاً على سطح هذه الكرة ويشتركون في تلك المصلحة . والسؤال الذي يعترضنا بعد هذا البيان هو ما يأتي : اذا كان الاجتماع يعني المعيشة معاً ، واقتسام الارض (بين الناس) فهل هو « فنٌ » يحيد كل فرد اعماله مستقلاً في اثناء اتصاله بالآخرين من الجماعة التي ينتمي اليها فبعضهم يحسن الاعمال وبعضهم يسيئهُ — او نحن نستطيع ان نستخرج بعض احكامه العامة التي تجعلهُ « علماً» للاجتماع البشري ؟ هنا يستحكم الجدال . فبعضهم يقول ان كل انسان ينظم علاقاته ، في دائرة هذا العيش المشترك ، وفقاً لذوقهِ الخاص ، الذي يلذ لهُ الاعراب عنهُ بطرقهِ الخاصة ، وان استخراج الاحكام العامة التي تصح ويمكن تطبيقها على كل الافراد وسلوكهم ، امر متعذر . وعلى الضد من ذلك تقول طائفة اخرى : ان الناس يتصرفون وفقاً لنواميس طبيعية معينة ، مهما تختلف البلدان التي يقطنونها ، فاذا كشفنا عن هذه النواميس ، فزنا بانشاء « علم الاجتماع » . وبعض علماء الاجتماع يتطرفون في تبسيط المسألة اذ يذهبون الى ان النواميس التي تسيطر على المادة الجامدة ، تسيطر على الانسان كذلك وانهُ لذلك لا يعدو ان يكون آلة معقدة التركيب . ويقابل هؤلاء طائفة ترى انهُ رغماً عن الاثر البالغ الذي تتركه نواميس العالم الطبيعي في الانسان ، لا يمكن ان تكون وافية ، لانها تتجاهل فعل ذلك العامل القوي الخفي الذي يصح ان نشير اليهِ باسم « مبدإ الحياة » او « عنصر الحياة » . فالحياة ولا ريب تحدث اختلافاً ما في اية مادة تمسها ، ولكن اذا نظرنا الى الرتبة

العليا من الحياة التي نشهدها في « العقل الانساني » وجدنا ان هذا الاختلاف كبير جداً . وعليه فاذا رغبنا في وضع « علم للمجتمع » وجب علينا ان نتبع الاسلوب العلمي في محاولتنا وهو يقوم ، على جمع كل الحقائق الممكن جمعها ، ثم تبويبها ، ثم وصفها ثم استعمالها في « العمل والحياة والبحث عن الحق » . لذلك نرى الاجتماعي الحديث يدرس الرياضيات عن طريق « علم الاحصاء » ويدرس الناس عن سبيل جمع كل الحقائق التي يستطيع جمعها ، غير معرض عن حقيقة واحدة ، سواء احبها ام كرهها ، ثم يجلس وامامه الجداول والمذاهب ، محاولاً ان يجد كيف تتشابه هذه الحقائق ، وكيف ترتبط طائفة من الحقائق باخرى ، وما نشأة هذا الارتباط وهلم جرا . عليه ان لا يعرض عن شيء مهما يكن طفيفاً ، بل عليه ان يحسب حساباً لكل ناحية من نواحي السلوك الانساني ، حتى آراء الناس وعاداتهم الخاصة ، من طرق التحية الى المعتقدات والتقاليد الدينية . فاذا اعرض ، قصداً ، عن عامل من العوامل — كعامل الدين مثلاً — فهو اذاً ليس عالماً صحيحاً وانما هو متحزب لرأي خاص او فكرة معينة . فعمل العالم الاجتماعي الحديث ، هو استكشاف الحقائق الانسانية ، واستخراج الاحكام العامة التي يمكن استخراجها من هذه الحقائق . العلم — قال كارل بيرسن العالم الاحصائي البريطاني — فهرست مبوب لكتاب الحياة يمكننا من العثور على ما نريد بسهولة ، وانما لا يعلل لنا كل محتويات الكتاب

* * *

فلننظر الآن في بعض الاحكام الاجتماعية العامة ، وخصوصاً ما كان منها متصلاً بالمكتشفات الحديثة في العلوم التي تمت الى الاجتماع بصلة ، كعلوم الاحياء وعلم الاقتصاد ، وادب النفس

والسنة الاولى التي نبدأ بها تبدو كلها اولية نسلم بصحتها . وهي من وضع لوبلي Le Play المهندس والاجتماعي الفرنسي الشهير ، صاحب السهم الوفير في انشاء علم الاجتماع في القرن التاسع عشر . فقد ذهب الى ان اية جمعية بشرية هي نتيجة التفاعل بين ثلاثة عوامل — المكان والعمل والشعب . فبالمكان يقصد البيئة الطبيعية ، وبالعمل النظام الاقتصادي ، وبالشعب الناس واوضاعهم الاجتماعية والسياسية . فيبدو كأن هذه السنة تشمل كل ما يجب ان تشمله من عناصر الاجتماع لانها تضم في كنفها الانسان كما هو وبيئته

اما الآن فنرى المدارس الاجتماعية المختلفة تقدم احد هذه العوامل على الباقي وبسبب ذلك نظر اصحابها الى الموضوع من نواح مختلفة . فثمة في علم الاجتماع المدرسة الجغرافية والمدرسة البيولوجية (الحيوية) والمدرسة السيكولوجية (النفسية) والمدرسة السيولوجية (الاجتماعية) فنعمد لتعقيد المسألة نكتفي بالنظر الى الناحيتين الاساسيتين وهما — اولاً — البيئة ونقصد بها (المكان والعمل او النظام الاقتصادي) — وثانياً — الوراثة (ويراد بها طبيعة الناس) فنعرض الى ما كشفه البحث الحديث من حيث طبيعة الاجتماع البشري ونموه

البيئة

اثبتت المباحث الحديثة ان للبيئة الطبيعية اثراً يفوق الاثر الذي كنا نتصوره . ففي عالم الاحياء نعلم ان لا بدّ من توافر اربع مواد لحياة البروتوبلازما وهي الهواء والحرارة والرطوبة والغذاء . وعلماء الاحياء يستطيعون بتنويع المقادير التي يبيحونها من هذه المواد للحيوانات الدنيئة ، ان يغيروا من نظامها وتكوينها فيخلقون طبقاً لمرامهم عظايات ذوات رأسين ، واسماكاً ذات عين واحدة ، وذباناً غير سوية التركيب ، كما يستطيعون ان يزيدوا سرعة الافعال الحيوية فيحولون بعض الحيوانات التي تقطن الماء الى حيوانات تقطن اليابسة . وبتوجيه اشعة اكس الى جراثيم التناسل والخلايا الاولى التي يتكون منها الجسم ، يحدثون تغيرات بعيدة الاثر في النسل ، وخصوصاً من ناحية اظهار الصفات الكامنة عن طريق النتك بالعوامل التي تحمل الصفات المتقابلة (راجع مقالي الوراثة في مقتطف يناير وفبراير ١٩٣٢)

وهذه التجارب لم تسفر عن اي فائدة عملية في النوع البشري ، الاّ من سبيل غير مباشر . فاذا ظهر في بعض الناس صفات غير سوية ، امكن التغلب عليها واعادة الجسم الى نظامه السويّ بتغيير احد العوامل الاربعة المذكورة آنفاً . فالبلهُ (Cretinism) في الاطفال يشفى بتناول خلاصة الغدة الدرقية ، ومرض البول السكري بالانسولين . أما من حيث ما يرتبط بالحرارة فقد ثبت من مباحث ارلند بجامعة ايليوي الاميركية ان مقدرة اعضاء الهضم على تعقيم الطعام تضعف في الجوّ الحار ، لان العصارة الهضمية تفقد حموضتها ، واذاً فالانسان اشدُّ تعرضاً للمرض في الاقاليم الحارة الرطبة . وهذا التباين في الحرارة والرطوبة عن المستوى المتوسط ، يمكن تعديله بتغيير الطعام اذا عرفنا كيف نفعل ذلك . وفي كلا الحالين ، يتأثر الانسان بما يحيط به من عناصر الطبيعة . وثمة مثل آخر . اثبت بواس Boas (العالم الانتربولوجي الاميركي) بمقاييس انتربولوجية ان بناء الجسم في سلالة من السلالات يتغير اذا انتقلت السلالة من اقليم الى آخر متباين عن الاول . فالسلالات الاوربية المتدرة الرؤوس تتجه الآن في اميركا الى استطالة الرؤوس . وقد طعن بعضهم في النتائج التي وصل اليها — وأخص بالذكر كارل بيرسن — وانما البحث في هذا الموضوع لا يزال موصول الحلقات . ومن الطرق الخفية التي تنتحيها البيئة في تغيير الفرد (من دون ان تؤثر في جراثيمه التناسلية واذاً فهو تغيير لا يورّث) الغدد الصماء . فقد تكون الارض في بلد ما ناقصة عنصراً من العناصر الحيوية فيتأثر بناء الجسم بهذا النقص والعقل كذلك . وقد تتأثر على مرّ الاجيال جراثيم التناسل (المقتطف — والمثل على ذلك نقص اليود في بلاد سويسرا وما يصاب به اهلها من مرض الغوار كما بينا في المقتطف . ويعالج بخلاصة الغدة الدرقية لان افرازها يحتوي على قدر كبير

من اليود) وقد كانت وجوه التقدم العلمي في الحضارة الحديثة خير معوان على مقاومة هذه القيود او النقائص الطبيعية . فنحن نستطيع ان نتدفأ في المناطق المتجمدة ونتبرد في المناطق الاستوائية ؛ ونحن نستطيع ان نستورد الاطعمة لمد ما ينقصنا منها في منطقة معينة، ونستطيع كذلك ان نرحل من اقليم غير موات الى آخر يوافي الصحة مدداً تقصر او تطول — وبكلمة موجزة، قد مكنتنا وسائل المواصلات الحديثة من توسيع نطاق البيئة حتى تشمل العالم بأسره

الوراثة

وثمة وجوه اخرى لمسألة البيئة سوف نعود اليها بعدُ ، وانما نريد ان نذكر بعض ما يبدو لنا من الناحية الاخرى من سنة له بلي (Le Play) وهي الشعب والوراثة. لقد اتسع نطاق معرفتنا بالعوامل الخارجية التي تفعل في الجسم البشري وتبدل من علاقة افراده بعضها ببعض وفي الوقت نفسه زادتنا المباحث الحديثة ثقة باستقرار « الجرثومة التناسلية » التي ينشأ منها الجسم الحيّ . فقد اجريت تجارب متنوعة غرضها احداث تغيير في الجرثومة التناسلية وكروموسوماتها الناقلة للصفات الوراثية. والكروموسومات ينظر اليها كسلاسل من العوامل (genes) والعامل هو الجزء من الكروموسوم الحامل لصفة واحدة معيّنة كلون العيون مثلاً . وقد ثبت انهُ توجد وسائل لاحداث تبديل في « العوامل » بفعل البيئة ، كاستعمال اشعة اكس مثلاً . ولكن تبين كذلك ان هذه الوسائل المصطنعة لاتحدث تغييراً دائماً في المادة التناسلية . بل ان النسل المقبل يرتدُّ الى ما كان عليه السلف قبل احداث التغيير بالوسيلة المصطنعة . والطريقة الوحيدة لتغيير هي «التناسل الانتخابي» وهذا اذا طبق على الناس كان عملاً بطيئاً كل البطء (علاوة على معارضة التقاليد الاجتماعية لهُ) ولعل تعذرهُ في الناس عمل وقائيّ . فالانسان كائن يحب الاستطلاع فيقدم حيث تخشى الملائكة ان تقدم، ولذلك اراد الخالق ان يجعلنا غير معرضين للخطر من هذه الناحية، فجعل تغيير الطراز الانساني وفقاً لوهم عارض او زي فاش في جيل من الاجيال ، امراً متعذراً . وقد اشار ماكيفر « Maciver » الى علاقة البيئة بطبيعة الكائن الاساسية فقال (ان البيئة « عامل سلبي » يتفاعل معهُ كائن حيّ بحسب استعداده الخاص. ففي احوال مماثلة من البيئة الطبيعية نجد اختلافات كبيرة في العادات والاوضاع والطبائع ، في طوائف مختلفة من الناس . فالبيئة لا تكيف تكييفاً ايجابياً خلق الانسان ، وانما تمهد الطريق لتمر هذه القوة الكامنة في الانسان او تقيم حائلاً في سبيلها . وهذه القوى الكامنة هي سرّ الحياة ، ولن نستطيع ان نطلع عليها كاملة من مشاهدة مظاهر البيئة المتقطعة ». وقولهُ ينطوي على جانب كبير من الصحة ، الاّ ان المباحث البيولوجية الحديثة اثبتت ان للبيئة اثراً اكبر من الاثر الذي اشار اليه

البيئة الاجتماعية

وهذا يقودنا الى البحث في عامل خطير هو عامل البيئة الاجتماعية . وفي هذا الميدان ينشأ علم الاجتماع ويترعرع

ماذا يقال في طبيعة القوة التي تجمع الافراد وتكوّن منهم مجتمعاً ؟ هنا تواجهنا مسألة — ما هي الصلة بين الفرد والمجتمع ؟ ايهما أهمّ ، الفرد أو المجموع . ومن منهما يُقدّم على الآخر؟ وفي الجواب عن هذه الاسئلة لا بدّ من النظر المشارف . كلاهما يساوي الآخر في خطره ، وكلاهما نصف من كلّ ، لا يتمّ الاّ بالنصف الآخر . بل نستطيع ان نذهب في التدليل على هذه الوحدة الى حدّ القول بأنّ كلّ الاحياء تعتمد بعضها على بعض وان اختلفت درجات الاعتماد . ولكي نتمكن من هذا النظر المشارف الى علاقة الفرد بالمجتمع أريد ان اضرب المثل الآتي :

على سطح الارض مادة ، حار العلماء في تحليلها ، تدعى البروتوبلازم . وهي اصناف متنوّعة ، وانما اساسها واحد . فصنف منها يدعى « نباتاً » وآخر يدعى « حيواناً » . فبروتوبلازم الحيوان يختلف اختلافاً ظاهراً عن بروتوبلازم النبات في مسألة الحركة . فوحدات البروتوبلازم الحيواني تنتقل من مكان الى مكان بحسب ارادتها . وكل وحدة من هذه الوحدات الحيوانية طائفة أو مجموعة من وحدات البروتوبلازم — وقد دعيت وحدة البروتوبلازم خلية — وكل وحدة حية تختلف عن الاخرى من وجوه كثيرة ، وانما يمكن تحويلها كلها، تحويلاً غير مباشر ، من حيوان الى نبات أو من نبات الى حيوان . فالحيوان يتغذى بالنبات، فيبني جسمهُ من عناصر جسم النبات الذي يأكلهُ ، والنبات يتغذى احياناً ببقايا حيوان منحلّ . وبعض طوائف هذه الخلايا ندعوهُ « الاجسام البشرية » ولكن مادة الجسم البشري تمتاز عن مادة الكائنات الحية الاخرى ، بما يجعلها اسهل انتقالاً واقدر على ملاءمة نفسها للبيئات المتنوّعة . ثم ان اجتماع الخلايا صفة اساسية من صفات البروتوبلازم . فليس ثمة خلايا منفردة تستطيع ان تحيا منفردة مدة طويلة ، ولكن الخلايا التي تجتمع وتشترك ، لها اوفى نصيب من طول الحياة . وقد اثبتت المباحث الحديثة ان حياة البكتيريا ، تكون اخصب ، اذا كانت تعيش في جماعة ، منها اذا كانت تعيش منفردة . فالاشتراك ، ذو فائدة في التغلب على عوادي الحياة ، سواء كانت هذه الفائدة ناجمة ، عن زيادة مقدرة الجماعة على الدفاع عن نفسها ، أو عن تأثيرها بعضها في بعض . وقد اشار الى ذلك الاستاذ ألي Allee احد اساتذة شيكاغو ، في مقالة نشرها في جزء نوفمبر ١٩٣١ من مجلة الاجتماع الاميركية مثبتاً ان لتجمع في الحيوانات المختلفة من البكتيريا الى البروتوزوى الى الهيدرا الى الديدان المسطحة الى العلق الى دعاميص الصفادع الى الحلازين الى الحيوانات المفصلية الى نجوم البحر الى الحشرات الى الاسماك ، فائدة

في سرعة التمر ودفع عوادي الحياة المختلفة. واذاً نخلص من هذا بحقيقة خطيرة: وهي ان الاشتراك، أو المعيشة معاً، او الاجتماع، أمر اساسي تمتاز به المادة التي بنينا منها — أي البروتوبلازم

***

ويجدر بنا ان نلاحظ هنا ان الاشكال البروتوبلازمية التي تمتاز بارقى حظ من حرية التنقل، والقدرة على ملاءمة نفسها للبيئة، هي اكثرها تعرضاً لانفراد وحداتها، عن المجموع، وفقدانها للفوائد التي تنجم عن الاشتراك. وهذا اصدق ما يكون على الانسان. وكلما ازداد استقلال الفرد: زادت الصعوبة في الاحتفاظ بالتجانس في الطائفة، بل بالاحتفاظ بالحياة نفسها. ان بقعة من الطحالب، اكثر تجانساً بالنسبة الى نوعها الخاص، واكثر استقراراً من الشعب الانجلكسوني. ولكني لا ارتاب في اننا نفضل المغامرة والمجازفة التي تكون نصيبنا كافراد في الشعب الانجلكسوني، على ان نكون طحالب. ومهما يكن من أمر الحرية الانسانية في حل الاجتماع الانساني، فانها لا تقوى قط على التغلب على هذه النزعة الاساسية، نزعة الاجتماع. فالاجتماع أو التجمع، جزء لا يتجزأ من بنائنا. وسوف نعرض بعد الى علاقة الفرد بالمجموع، وانما ذكرنا ما يكفي لاقامة الدليل على التواكل المطلق بين الاحياء. وقد اشار عولس من قديم الزمان الى اعتمادهم على اخوانهم فقال «انا جزء من كل ما قيتهُ»

***

وتوطئةً لما سوف اقولهُ، لا بدَّ ان اذكركم ان علماء الاجتماع يقسمون اشكال «المعيشة المشتركة» الى ثلاثة هي — الاقوام أو الجماعات كبرت أو صغرت. والجمعيات وهي طوائف خاصة من الجماعة لها اغراض خاصة. والاوضاع أو المنشآت وهي صُوَر من تصرُّف الجماعات والجمعيات. فمكان القاهرة جماعة والاسرة فيها جمعية والتعليم أو القانون من اوضاعها. هذه الاشكال الثلاثة خاضعة لناموس التغيُّر والتبدُّل المستمرّ كالبروتوبلازم نفسه. والمشكلة الخطيرة التي تواجهها هي الملاءمة فيما بينها وحفظ التوازن. وهذا يصدق على الجماعة صدقه على الفرد. فالفرد دائماً معرَّض للمسألة: ماذا افعل في اللحظة الآتية ببيئتي؟ ولحسن الحظ ان شؤون الحياة العادية لا تقتضي جواباً عنها الاَّ في الاحوال الشاذة — اذ يفقد الرجل عمله، او يموت صديقه، او تنشب حرب، او يشب قتال. وهذه الاحوال الشاذة، دليل على التغير المستمر في احوال الاجتماع. والفرد — او الجماعة — مطالب في كل آن بحفظ التوازن الذي لا مندوحة عنهُ للحياة الهنيَّة. ولكن التوازن غير مستقرٌّ، وفي حاجة مستمرة الى محاولة اعادته اذ يختلّ: فكأنك تمشي على ارض زلقة او كأنك على متن سفينة في بحر هائج مضطرب، فكل خطوة تخطوها ليست ثابتة بل حافلة بالخطر العظيم

[البقية في العدد القادم]